نحن والآخر في الرواية العربية المعاصرة

في ضوء النزعة الإنسانية والالتزام في الأدب

د. نجم عبدالله كاظم
أستاذ النقد والأدب المقارن والحديث المساعد
كلية الآداب / جامعة بغداد

مقدمـــة :

أتى دخولي إلى الوطن الحبيب، العراق لأول مرة بعد السقوط الدرامي لبغداد بثلاثة أشهر، وفي أعقاب سبع سنوات من الغربة والبعد عنه وعن الأهل والأحبة. وللقارئ أن يتوقع حجم ونوع الأحاسيس والعواطف والانفعالات التي كانت تتفاعل وتصطخب في داخلي، كما يمكن أن تكون في داخل أي إنسان في طريقه إلى وطنه بعد غياب طويل، مضافاً إلى ذلك أن يكون هذا الوطن حينذاك في ظل احتلال أقبح قوة إمبريالية عرفها التاريخ. والواقع لم أكن قادراً حينها على تصور اللُقيا، فارتبكت عند أولى خطوات أخطوها على تراب الوطن عابراً الحدود البرية العراقية- الأردنية وأنا المح أول مظهر كنت أمَني نفسي عبثاً بأن لا أراه، عسكرياً أمريكياً يقف إلى جانب بضعة موظفين عراقيين. كان الوحيد الذي يحمل سلاحاً طالما رأيته في الأفلام السينمائية والوثائقية والإخبارية على شاشات التلفزيون يحمله العسكريون الأمريكيون ويفعلون به كل ما هو مسموح وممنوع. لم أعرف كيف أتصرّف وأنا أجدني مضطراً إلى الاقتراب من ذلك العسكري وقد تفجّر الآن الغضب في داخلي، إذ كان عند شباك ختم الجوازات، ولكن عند اقترابي منه بادر فوراً إلى سؤالي بودّ غريب: هل أنت من العائدين؟ فأجبت باقتضاب: نعم. فعاد ليقول بنفس الود: أهلاً بك في وطنك. وأحسسته يشدّد على "وطنك". عندها فقط تأملته فانتبهت إلى حداثة سنه.. كان في الواقع صبياً

الحي الذي يتواتر ذكره في النقد والدراسات الأدبية، الصحافة الأدبية، ومعروف أن المقصود به الأدب الذي إذ يبقى ويعيش على مر الزمن فإنه يكون جزءاً من التراث القومي أولاً وغالباً التراث الإنساني مع بقاء تأثيره وعطائه. وليس ببعيد عن الدقة القول بأن مما يكون وراء هذا إضافة إلى فنية العمل نزعته الإنسانية. "فالنزعة الإنسانية أعرق وأشمل وأبقى. وليس من شك في أن ذات الأديب والفنان تصدر عن هذه النزعة الحميمة، التي لولاها ما كان هناك أدب أو فن"(٣). وهنا نصل على المفهوم الذي يعبر عنه تعريف البعض له الآتي وبما يجمع جل ما قلناه:

" الأدب الإنسانيَ، هو أيَ نصَ، شعرًا كان أم نثرًا، بصرف النَظر عن الأدوات الفنيَة التي يعتمدها، يحمل معانيَ إنسانيَة خالدة خلود الزَمان، والمكان، والإنسان. وهو أيَ نصَ تُرجِمَ إلى أيَة لغة، ولم يفقد رسالته الإنسانيَة، ولو كان مغرقًا في المحليَة"(٤).

أخيراً نأتي إلى المعنى أو الدلالة التي تكاد تشتمل وبدرجات مختلفة على كل المعاني والدلالات السابقة وفي ظل ما قيل الكثير عنه واختُلف فيه، نعني التزام الأدب والأديب، وهو الالتزام الذي يربطهما، وتحت مختلف المفاهيم والآيديولجيات والأفكار والفلسفات، بالإنسان وإنسانية الإنسان وما يرتبطان به من فضاءات اجتماعية وفكرية وسياسية ودينية بدءاً بالخاص وانتهاءً بالعام. وهكذا وجدنا من يقول عن (الأدب الإنساني)، وبالضرورة عن إنسانية الأدب والأديب:

" يختص هذا النوع من الأدب في الانحياز نحو التعبير عن إنسانية الإنسان ... وهذا الاصطفاف للأديب مع القيم الإنسانية يؤدي إلى تعريض حياته إلى العديد من المشاكل ابتداءً من الفقر وانتهاءً بالتنكيل من قوى الشر التي تجد في هذا الاصطفاف خطورة تهدد مصالحها. ويعبر عن ذلك برنارد شو بقوله: ألم يصبح الأدب كفاحاً، والكفاح أدباً؟ "ويجد البعضُ أن اصطفاف الأديب إلى جانب القيم الإنسانية والعمل على الدفاع عنها، يعود إلى ضمير (الإنسان الأديب)، فكلما كان ضمير الأديب حياً كلما كان حراً في التعبير والدفاع عن قيم الخير. ... إن الأدب هو التعبير عن الضمير الإنساني،

المبحث الأول

النزعة الإنسانية والالتزام في الأدب

وتناول الروائي العربي للقاء الشرق والغرب

(1)

ماذا يعني مصطلح (الأدب الإنساني)؟ سؤال يطرح نفسه عندما نقرأ أو ننشد أو نطلب بأدب إنساني، وعبر ما يرتبط به أولاً في أذهاننا وانطلاقاً من لفظة (الإنساني) تحديداً وما تعنيه لغةً واستخداماً. هنا نتذكر ما أشار إليه الفريد نوبل في وصيته حول من تُمنح له الجائزة التي أوصى بها من الأدباء إذ قال: إنه من "قد أنتج أدباً هو الأكثر تميزا في اتجاه مثالي". فإذ يكتسب هذا الأدب بعداً مثالياً، فمن الطبيعي أن يعني هنا من جملة ما يعنيه انطواءه على الجانب الأخلاقي. وصارت الأكاديمية في فترات لاحقة تتحرى في الأديب الذي تمنح له الجائزة أن يمتلك أدبه "قيمة أدبية عالية وذات أهمية لتطور الأدب، وهذا يعني أن الأكاديمية قد تجاوزت تفسيرها للأدب المثالي"[١] ذي الدلالة الأخلاقية إلى ما هو أكثر من ذلك، ولكن بما لا يعني تخليها عن الخاصية (الأخلاقية) إن لم تؤكدها. ومن الواضح أن الأدب الذي تكلمت عنه الأكاديمية ببعديه المثالي والأخلاقي يتقبل توصيفه بالإنساني، ليعني الأدب الإنساني كتحصيل حاصل الأدب المثالي أولاً، والأدب الأخلاقي ثانياً. أما المعنى الآخر للأدب الإنساني الذي قد يعنيه من يستخدم المصطلح فهو العالمي الذي يفهم من خلال مصطلح (العالمية) كما عبر عنها الأديب الشهير غوتة وتوسعت لدى رائدة الأدب المقارن الفرنسية مدام دي ستال وتمثلتها بشكل خاص من خلال اهتمامها بالآداب الأوربية معتبرة أن "ثقافات البلدان الأوربية هي ملك لكل الأوربيين"[٢]. قد لا يتطابق هذا تماماً مع المعنى أو المعنيين السابقين، لكنه لا يخرج بالضرورة عنهما أو يناقضهما انطلاقاً من أن الأدب إذ يلتزم أخلاقياً خاصة من خلال اهتمامه بالإنسان وشؤون الإنسان، ليكون بذلك مثاليا فإنه يكون بالضرورة مؤهلاً للعالمية. وفي هذا نقترب كما يقترب المصطلح تلقائيا من معنى أو دلالة أخرى، تلك هي دلالة ما يسمى بالأدب الخالد أو

عدم تعرض هذه الأقطار لأزمات شديدة سياسية واجتماعية وثقافية، فإن هذه الشواهد أعمالاً وموضوعاتٍ في أدبنا عموماً لتبقى أكثر من أن تُنكر، خاصة في ما جسده من مواقف فرضها الالتزام بقضايا الأمة والدين والمجتمع والسياسة. وإذا كان تناول هذا يخرج ورقتنا عما هي مهتمة به ، فلعل من المفيد وباختصار عرض أهم موضوعاته التي جسدت بهذه الدرجة أو تلك التزام الأديب العربي بقضايا أمته وإنسانه مع عدم الخروج غالباً عن إنسانية تناوله ، وكما يأتي[٨]:

أولاً. موضوعات الظلم الاجتماعي والفوارق الطبقية وما ينتج عن ذلك من فقر ومعاناة الطبقات المسحوقة.

ثانياً. موضوعات القمع السياسي والسجون والمعاناة من ذلك، خصوصاً حين يشكل الالتزام السياسي وفي فترات معينة تزكية لهوية الأديب السياسية أو الفكرية.

ثالثاً. تعلقاً بالموضوعات السابقة ، يأتي موضوع الغربة، خاصة الإجبارية الناتجة عن القمع السياسي بشكل خاص.

رابعاً. موضوع المقاومة والحرب، ومعروف أن أبرز ما تَمثَّله الأدب العربي ضمن هذا الموضوع أو الموضوعات كان معالجاته لحروب العرب مع إسرائيل وخاصة حربي ٦٧ و٧، والحرب الأهلية اللبنانية، والحرب العراقية– الإيرانية.

خامساً. موضوع نحن والآخر، وتناوله في الأعمال الإبداعية يكون عادة من خلال جانبَي رؤية الآخر، وهو الغربي عادة، والتواصل معه، وكل ذلك يمكن أن نضعه ضمن دائرة (لقاء الشرق والغرب).

من الواضح بالطبع أن موضوع ورقتنا هو الموضوع الأخير، وتحديداً صورة الغربي أو رؤية العربي له وعلاقته معه في الرواية العربية المعاصرة، وعبر ذلك كيف يدير الروائي ذلك في ضوء النزعة الإنسانية والالتزام في الأدب. وهنا نرى من المفيد، قبل الدخول عملياً في تناول هذا الموضوع، التوقف عند نقطة مهمة نوضحها فيما يأتي :

والأديب هو ضمير العالم. وهناك من يجد أن الحرية الحقيقية التي يسعى إليها الأديب هي تعبير عن حرية الضمير ... ويجد فولتير أن حرية العقل وحرية العقيدة وحرية الضمير هي أثمن ما يملكه البشر. وهنا تكمن عظمة الكاتب والمبدع والأديب الذي ينهل من القيم الإنسانية مادته ويصنع منها آليات وأسلحة مضادة ضد قوى الشر التي تسعى لفرض قيمها على سائر البشر. وبهذا يعبر الأديب عن إنسانيته، وبالتالي عن حريته التي دونها يفقد آلياته في التعبير. ويعبر سلامة موسى عن ذلك خير تعبير بقوله: إن عظمة الكاتب تكمن في أن يكون بعضه فيلسوفاً، أو بعضه عالماً، أو بعضه أديباً، ولكن معظمه يجب أن يكون على الدوام إنساناً. وبهذا فإن الأدب الإنساني هو تعبير عن الحرية والضمير وقيم الخير والتصدي لقيم الشر المضادة"[٥].

بقي أن لا يكون هذا على حساب الفن، كما أخطأ أو توهم أو شاء أو فهم البعض أن الالتزام يعنيه أو يؤدي إليه. والواقع أن تشويه الالتزام أو مفهومه "كان نتيجة أمرين: أولهما أن أنصار الفن للفن قد صوروا الالتزام على أنه اغتيال للفن والأدب، وثانيهما أن أنصار الالتزام بالذات قد أساؤوا فهم هذا المبدأ. البعض قال إن الالتزام هو أن نكتب عن الشعب، والبعض الآخر قال إن الالتزام هو أن نكتب من أجل الشعب، وغيرهم قال إن المهم أن نعرف لمن نكتب، وغيرهم قال أن المهم أن نعرف لماذا نكتب، وآخرون قالوا إن المهم أن نعرف ماذا نكتب"[٦]. وكان من الطبيعي أن يكون هناك في الأدب ، وضمنه الرواية، كما لنا أن نلحظه في ما نتناوله من روايات في ورقتنا، مَن لا يشكل الالتزام شيئاً بالنسبة إليه وهو يكتب، ومن يشكل له ما يشبه السياسة أو المنهج الذي يسير بهديه حد التضحية أحياناً أو غالباً بالفن، ومن يسير بشيء من هذا الهدي ولكن مع عدم التضحية بالفن.

إذن لا نستطيع أن نستبعد، ونحن نضع في أذهاننا المبدأ الإنساني المطلق، وقضايا الإنسان وهمومه ضمن النزعة الإنسانية للأدب العربي من خلال الرواية العربية تحديداً، أيّاً من المعاني والدلالات السابقة تقريباً. والواقع أن الأدب العربي لم يكن بعيداً عن النزعة الإنسانية، وإذا كانت شواهد ذلك أقل وضوحاً في أجناس بعينها، بحكم طبيعة هذه الأجناس، وفي فترات معينة وفي آداب أقطار عربية محدودة[٧] بفعل

(2)

إن اللقاء بين الشرق والغرب قضيةً، وقبل ذلك واقعةً، هو أوسع من أن يكون قضية فنية أو أدبية فقط، فاللقاء تحقق عبر العصور مرات عديدة ، بل لعلنا يمكن أن نقول إنه يقترب من أن يكون أمراً طبيعياً ودائماً. لكن هذا القول يصح إذا ما أخذنا اللقاء بحدود تعلق الأمر بتحققه مجرداً، أي بمعزل عن طبيعته، وفرديته أو جماعيته، وتأثيره أو عدم تأثيره ، وكونه ظاهرة أو فعلاً عابراً. أما اللقاء الحضاري الذي يعنينا فإنه شيء آخر، ولا يمكن أن يكون فعلاً أو واقعةً مجردةً، وهو الذي يعني المؤرخ والباحث السياسي والاجتماعي والنفسي، وكتحصيل حاصل يعني أيضاً الناقد والدارس الأدبي وتحديداً حين يكون موضوعَ العمل الإبداعي الأدبي، أو مؤثراً بهذا الشكل أو ذاك فيه. وإذا ما كنا نقصد بالشرق العرب وإلى حد ما العالم الإسلامي، ونقصد بالغرب أوروبا وإلى حد ما أمريكا، فإن مثل هذا اللقاء بين الشرق والغرب قد تحقق مرتين رئيسين في التاريخ. الأولى حين وصلت جحافل الإمبراطورية العربية الإسلامية بإنسانها وفكرها وحضارتها إلى أوروبا ابتداءً من القرن السابع الميلادي وما استتبع ذلك من تأثير ضخم وشامل للحضارة العربية الإسلامية في أوربا. أما المرة الثانية فكانت حين وصل الغربي إلى عالمنا ، خاصة عبر بوابتي مصر وبلاد الشام من خلال حملة نابليون وما تلاها من وسائل غازياً ومبشراً دينياً ومستعمراً وعالماً ومعلّماً. والذي يعنينا في دراستنا هو اللقاء الثاني بالطبع.

كان لا بد أن يكون من نتائج هذا اللقاء على أرض الواقع، وانطلاقاً من تجربة كل منهما للآخر ونظرته إليه، أن تتبلور صورة أو صور كل منهما في ذهن الآخر وما تفرضه تلك الصورة أو الصور أو ترتبط بها من أساليب التعامل فيما بينهما. وتعلقاً بصور الغرب والغربيين وكما يعبر عنها الأدباء العرب، وخاصة الروائيين فإنها تأتي حصيلة مؤثرات وعوامل موضوعية، هي في معظمها وسائل اتصال هؤلاء الأدباء بالغربيين وتعاملهم معهم. أما أهم هذه المؤثرات والعوامل ووسائل الاتصال فهي الآتية[٩]:

أولاً. الاستعمار والوجود الأجنبي وما يتصل به من وجود قواعد عسكرية، أمريكية

نعي جميعاً العاطفية التي كثيراً ما تدفع العربي إلى تبني المواقف وإلى الفعل وضمن ذلك تعلقاً بموضوعنا إلى تصور الآخر بهذا الشكل أو ذاك مع كل ما يصاحبها من سلبية. وإذ نعي وجود هذه العاطفية فإننا لا يمكننا تجاوزها تجاوزاً تاماً، ولكننا لننتظر من نخبة المفكرين والمثقفين، والأدباء منهم بالطبع، الإقرار بوجودها وبفعاليتها التي هي ليست بالضرورة سلبية، ولكن مع إخضاعها بدرجة ما للعقل والمنطق في علاقتها بالموقف من الآخر وفي ملاحقتها للأمور المختلفة المتعلقة بذلك من أحداث ووقائع وشعوب وتعاملات وحوارات معه. بتعبير آخر نحن ننتظر لا أن تُلغى العاطفة العربية، عاطفيتنا، بل أن تُلحق بالعقل لا إلغاءً، وما بين هذا وذاك فرق بالطبع. فالإلغاء يتناقض مع الواقع إذ يعني إلغاء خاصية مهمة من خصائص الشخصية العربية، هذا إذا كان الإلغاء ممكناً أصلاً، وبما يعني مسخاً بدرجة أو بأخرى لهذه الشخصية، وأعتقد أن غير قليل من المفكرين والكتاب والسياسيين والناس العاديين إذا لم يكونوا يرفضون ذلك فإنهم على الأقل لا يستطيعونه. وعلى أية حال وتعلقاً بموضوع رؤية العربي للآخر وعلاقته به لا نعتقد أن هذه العاطفية هي تحديداً التي تشكل هذه الرؤية، أن عاملين رئيسين – قد يتفرعان بدورهما إلى عوامل ثانوية – كانا وراءها وبشكل خاص وراء التصور المطلق في سلبيته لشخصية الغربي كما شاع في أذهان الغالبية الكبيرة من العرب مع عدم إنكار أن تلعب العاطفية دوراً مؤثراً في فعل هذين العاملين، وهما:

العامل الأول: هو حقيقة الغربي ذاته في طبيعته ورؤيته وسلوكه وما يصدر عنه فعلياً تجاهنا من أعمال ومواقف عدائية أو غير ودية (not friendly) ، على حد التعبير الإنكليزي.

العامل الثاني: هو محدودية احتكاك العرب عموماً أو في وقت بعينه بالغربيين، ويكون هذا العامل فاعلاً خصوصاً حين يكون هؤلاء محدودي الاحتكاك هؤلاء وراء التصور السلبي للغربيين في ظل تأثيرات موضوعية وغير موضوعية يخضع لها.

تتطابق أحياناً صورة الواقع هذه مع الصورة التي يريد الكاتب لها أنت تكون. ولعل أكثر ما انعكس هذا على النظرة إلى المرأة والجنس والعلاقات ما بين الجنسين، وإلى القيم المختلفة للعالمين المتباينين بغض النظر عن اختلاف الكاتب أو اتفاقه مع وجهات نظر الآخر، وهو ما يبدو لنا لدى الكثير من الروائيين، الطيب صالح في "موسم الهجرة إلى الشمال"، وسميرة المانع في "السابقون اللاحقون " و"الثنائية اللندية"، ورضوى عاشور في "الرحلة"، و محمد أزوقة في "الثلج الأسود"، و أحلام مستغانمي في "ذاكرة الجسد" و"عابر سبيل"، و بتول الخضيري في "كم بدت السماء قريبة"، وميسلون هادي في "الحدود البرية".

رابعاً. وسائل ومؤسسات الاتصال والثقافة والإعلام، خاصة المنشورات المكتوبة والمسموعة والمصورة أو المرئية. وتتوزع هذه الوسائل والمؤسسات من حيث تأثيرها إلى قسمين القسم الأول يضم غالبية وسائل الإعلام العربية التي كانت تلعب دوراً في تشكُّل الصورة السلبية أو القبيحة للغرب الرأسمالي. أما القسم الثاني من هذه الوسائل فهي الغربية وفي مقدمتها الأمريكية. وكانت هذه تصور الغرب، وبشكل خاص أمريكا، بصورة جنة الحرية والديمقراطية والعيش الرغيد. وكانت هذه الوسائل أيضاً وراء صورة(السوبرمان) الأمريكي مع ملاحظة أن هذه الصورة لم تظهر في الأدب العربي، وخاصة الروائي بشكل مباشر أو ملفت للنظر. ولعل هذا العامل ، وتحديداً في القسم الأول من الوسائل والمؤسسات، إذا ما ألحقنا به التعرف على الغرب عبر الطرق السريعة أو غير المباشرة كالسياحة والسماع، هو أكثر العوامل تشويهاً للصورة وإبعادا للموضوعية في تعامل بعض الكُتّاب العرب مع الغرب والغربيين مقارنة مع الواقع. ومرة أخرى أكثر ما ظهر من نتائج غير مقنعة أو غير موضوعيه نتيجة لذلك كان في تصوير المرأة الغربية، فلا نظننا بمبالغين إذا ما قلنا إن من النادر أن نجد شخصية نسوية غربية في الأعمال الروائية العربية سوية أو متزنة أو شريفة، حتى حين تكون زوجة عربي مثلاً وهو نتذكر أن الكثير من

بشكل خاص، وقوى دعم لأنظمة عربية وغير عربية. ويمكن عدّ هذا المؤثر الأقدم بعد الاتصالات الأولى في القرن التاسع عشر. ومن الروائيين التي تأثرّوا بهذا عبد الخالق الركابي في رواية "مكابدات عبدالله العاشق" وتقديمه لشخصية ضابط إنكليزي، ومهدي عيسى الصقر في "الشاهدة والزنجي" وتخيّله لوجود أمريكي في بغداد الأربعينات، وسحر خليفة في "الميراث" وتعاملها مع فلسطين المحتلة، وكاظم الأحمدي في "أمس كان غداً" وتقديمها لشخصية مسؤول إنكليزي، وميسلون هادي في "الحدود البرية" وتعاملها مع العراق في ظل الاحتلال الأمريكي الحالي.

ثانياً. الصراع العربي الإسرائيلي، فقد كان لهذا العامل تأثيره الكبير في نظرة الكُتّاب إلى الغرب والغربيين. وإذا لم يكن لمثل هذا العامل أن يظهر تأثيره مباشرةً في التجربة الروائية، فإنه برأينا كان لا بد أن يفعل هذا في غالبية الكتاب وبما ينعكس بهذه الصورة أو تلك في أعمالهم الروائية. من أبرز الروائيين الذين تأثروا في بعض رواياتهم بهذا العامل رضوى عاشور في "الرحلة" التي لا تكاد القضية الفلسطينية والصراع العربي الإسرائيلي يغادران ذهن بطلتها، وحميدة نعنع في "الوطن في العينين" التي تحمل القضية الفلسطينية في قلبها وذهنها وهي في باريس، وليلى الأطرش في "وتشرق غرباً" التي تقع أحداثها في قلب القضية والصراع والمقاومة، ومحمد أزوقة في "الثلج الأسود" الذي يهيمن موضوع الصراع على الكثير من نقاشات الشخصيات.

ثالثاً. الخلفية الفكرية والسياسية والاجتماعية والعقائدية، وتعلقاً بذلك القومية والدينية، وهو العامل الذي كان له تأثيره في نظرة الكُتاب الموجّهة غالباً إلى الغرب والغربيين. لقد قاد هذا التأثير في النتيجة إلى أن ينطلق الكاتب في كتابة عمله، وضمناً في التعامل مع الغرب وفي رسم الشخصيات الغربية فيه، من نيّات مسبقة لأن تكون هذه الشخصيات بالأشكال التي يريدها أن تكون وبما يتلاءم مع خلفياته الدينية أو الفكرية أو السياسية، لا مع واقعها أو مع ما وَجد عليها أصولها التي نفترض أن تكون لها . لكننا لا نريد أن ننفي هنا بالطبع أنّ

بسطاء الناس يتصورونه عن المرأة في الغرب. ولعل من الروائيين الذين عكست بعض أعماله تأثرهم بهذا العامل عيسى الناعوري في "ليلة في القطار"، وعدنان رؤوف في "يوميات علي سعيد"، وعلي خيون في "العزف في مكان صاخب".

خامساً. المعايشة والاختلاط والعلاقات التي يقيمها الكاتب مع غربيين، وخاصة حين تكون نتيجة دراسته في الغرب أو هجرته إليه، وهو الأمر الذي كان غالباً- على عكس ما فعله القسم الأول من العامل السابق وراء الجانب الموضوعي- غير المسبق أو الانفعالي أو التعصبي- في تعامل بعض الكتاب مع الغرب والشخصية الغربية، كما يتضح ذلك مثلاً بدرجات مختلفة في "عصفور من الشرق" لتوفيق الحكيم، و"قنديل أم هاشم" ليحيى حقي، و"السفينة" لجبرا إبراهيم جبرا، و"الحي اللاتيني" ليوسف إدريس، و "موسم الهجرة إلى الشمال" للطيب صالح، و"الثلج الأسود" لمحمد أزوقة، إضافة إلى رواية سميرة المانع "الثنائية اللندنية"، وعدنان رؤوف في "يوميات علي سعيد"، وناجي التكريتي في "تورا"، وغائب طعمه فرمان "المرتجى والمؤجل"، وسحر خليفة "الميراث".

وإذا كان من الطبيعي لغالبية هذه العوامل أو المؤثرات أن تلعب أدواراً في رسم الصورة السلبية للغربي، لتنعكس بالتالي على التعامل معه، فإننا يجب أن لا نستبعد أن يلعب المؤثر الحضاري- الإنساني الذي قد تنطوي عليه بدرجات مختلفة بعض المؤثرات السابقة نفسها دوراً في ما يمكن أن نسميها الصورة الإنسانية للغربي، خاصة لدى أصحاب الثقافة الواسعة والتجربة الطويلة من الكتّاب، وكما سنراها في المباحث القادمة.

[العشرين] بتأثير البعثات الدراسية للطلبة العرب إلى أوروبا من جهة والزيارات التي قام بها أدباء عرب إلى أوروبا من جهة أخرى"(١٢). يبقى أن هذا الاهتمام أو التمثل قد مر بمراحل، وفقاً لمراحل الاتصال أو اللقاء نفسه وطبيعة كل مرحلة منها من جهة، ولمراحل تطور الرواية العربية نفسها من جهة أخرى. وقد طرحت روايات كل مرحلة أنماطاً مختلفة بدرجة أو أخرى من صور الغرب والغربيين ومن علاقات العرب بهم، كما سنسعى إلى عرضها فيما سيأتي(١٣).

(2)

المرحلة الأولى، وهي المرحلة الممتدة من منتصف القرن التاسع عشر تقريباً إلى الحرب العالمية الأولى، وكانت كتاباتها عبارة عن وصف للغرب أو لبعض جوانبه مع الانتباه إلى ظواهر الأمور وإعطاء بعض ذلك اهتمامات خاصة، وكل ذلك مع غلبة التعميم ونقص الوضوح عادة، وحتى في حالة بيان الرأي أو الآراء فإنها تكون في "شكل الانطباعات الشخصية"(١٤). كان أهم من مثّل ذلك رفاعة الطهطاوي في "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" - ١٨٣٤ - وعلي مبارك في "علم الدين" - ١٨٨٣ - وأحمد فارس الشدياق في "الساق على الساق" - ١٨٨٧ - ومحمد المويلحي في "حديث عيسى بن هشام" - ١٩٠٥. وتعلقاً بأعمال هذه المرحلة وهذه الأعمال يجب أن نقول إن واحداً منها، وهو "حديث عيسى بن هشام" يخرج إلى حد كبير عما قلناه وقاله الدكتور معجب الزهراني في الاقتباس السابق عن طبيعة أعمال هذه المرحلة، خاصة من ناحية فهم الغرب. وفي هذه الأعمال عموماً، وفي العملين الأولين خصوصاً "كان الشعور تجاه الآخر بأنه المتفوق وليس العدو المتحكم"(١٥).

المرحلة الثانية، وهي الممتدة من الحرب العالمية الأولى إلى فترة التحرر والاستقلال وحركات التحرر والثورات في الخمسينات والستينات، وربما إلى نكسة حزيران ١٩٦٧. بعد أن برزت صورة (الغرب) بوجهها الاستعماري التسلطي. فإن تلك العلاقة على رغم أنها أصبحت علاقة ملتبسة، يختلط فيها جانبه الاستعماري وجانبه الحضاري، فقد بقي لقاء الحضارات في الروايات التالية محور التواصل والترافق والمثاقفة والمواءمة(١٦). وقد شهدت هذه مرحلة شهدت التأسيس الفني

المبحث الثاني

أنماط صورة الغرب والغربيين في الرواية العربية

(1)

إذن اهتم الأدباء بلقاء الشرق والغرب مستجيبين له بتمثّل أشكاله ومناقشين لقضاياه أحياناً، ومجسدين لرؤاهم فيه عادة، وكان ذلك طبيعياً في ظل انفتاح العرب على الغرب، وبشكل أكثر تحديداً أوربا قبل أن يشمل أمريكا في وقت لاحق، وانفتاح الآخرين. وكان لهذا أن يطرح بالضرورة علاقة كل من الطرفين مع الآخر في ظل الاختلافات الكثيرة بينهما، الأمر الذي يثير بالضرورة أيضاً الخلاف والرفض أحياناً والقبول، ربما المتحفظ، أحياناً أخرى. لقد كان من الطبيعي أن لا تتأخر هذه الاستجابة أو التمثل عن فعل اللقاء نفسه وما أثاره خاصة في ظل الاختلافات الكثيرة[١٠] إلاّ بحدود تأخر ظهور النوع الأدبي الذي يعنينا عند العرب. عدا ذلك اهتم العرب من خلال مفكرَيهم ومثقفيهم بهذا للقاء مبكراً، فقد "انشغل مفكرو عصر النهضة العربية بقضية العلاقة بين الشرق والغرب، وسجلوا تجاربهم لدى ارتطامهم بالحضارة الأوروبية ح، وحددوا مواقفهم ورؤاهم بالنسبة لهذه العلاقة وآثارها ونتائجها"[١١]. وكُتب في ذلك الكثير مما لسنا معنيين هنا إلاّ بما كان له علاقة بموضع اهتمام هذه الورقة، نعني الرواية. وحتى هنا، إذا ما أردنا أن نكون مرنين بما يكفي للتعامل مع تلك الكتابات التي اشتملت على بعض ملامح العمل القصصي، خاصة التي يرى النقاد والباحثون أنها مهدت لظهور الرواية، فإننا سنجد هذا (الانشغال)- على حد تعبير نزيه أبو نضال- والتمثُّل الإبداعي كما سيكون بعد حين، كان مبكراً نسبياً أيضاً، بل هو واكب إلى حد كبير الاتصال الحضاري المتحقق بين الشرق والغرب. وهكذا كان الروائيون أكثر الأدباء العرب تناولاً لهذا الموضوع رغم حداثة الفن الروائي بشكل خاص والقصصي بشكل عام في الأدب العربي مقارنة بالشعر مثلاً. ويبدو أن مرد هذا التناول الملفت للنظر هو طبيعة الجنس الروائي نفسه المتعامل مع الحياة والواقع والناس والتجربة أكثر من أي جنس آخر وهو الأمر الذي يجعلنا نختلف مع قول أحد الباحثين: "انتبهت الرواية العربية لقضية الشرق والغرب في النصف الأول من هذا القرن

الحاضر، ونعني تحديداً إلى الاحتلال الأمريكي للعراق وما عناه ذلك من عودة صريحة وجديدة للاستعمار والهيمنة الأجنبية على العرب، ولكن عبر هوية جديدة يدّعيها هي هوية الأمريكي الصديق والمخلّص والمحرر، مع أن صورة الاستعمار التقليدي لا تزال في ذهن العربي، "فالذكريات ما تبرح جثة، دامية، محرقة. والمشاعر ما تزال متأججة . والاستغلال الاقتصادي الاميريالي الجديد وغير المباشر ما يفتأ يقوم بنفس دور الاسترقاق الكولنيالي المباشر"(٢٠). وإذا كانت هذه المرحلة من جهة امتداداً للمرحلة السابقة من حيث وعي كتابها، وتقديمها روايات ظهرت في مرحلة متقدمة من مراحل تطور الرواية العربية. فإنها جاءت أكثر استيعاباً لثنائية الشرق والغرب، ولكن مع بعض الارتباك في فهم المثقفين العرب بشكل خاص، ومنهم الروائيون بالطبع، لما يجري من حولهم وانقسامهم حوله، وهو الارتباك الذي أحدثته حروب الخليج والاحتلال الأمريكي للعراق، وعزّزه بلا شك الوضع المتزايد في مأساويته في فلسطين في ظل تتالي حكومات إسرائيلية يمينية عنصرية عنيفة إلى حد الوحشية، وفوق ذلك مدعومة بأمريكا وإلى حد ما الغرب الأوربي. وعموماً بدت غالبية الأبطال مثلاً، وأوضح تمثيلاً لوعي الروائيين في تعاملهم مع الغرب، وخاصة حين قدموا شخصيات غربية وشرقية في لقاءات تراوحت ما بين ترسيخ لصورة الغربي المعادي تحديداً وللصورة الإنسانية والفكرية والندّية -إن صح التعبير- له مع ميل إلى الاتزان والثقة في التعامل مع ذلك. هذا يشجعنا على أن نحاول تلمس رؤية العرب للغربيين عبر رؤى بعض كتاب هذه الروايات لهم كما تنعكس في الصورة التي تقدمها الروايات للغرب والغربيين وفي المواقف منهما. ومن بين أعمال كل المراحل السابقة سنعنى في المبحث القادم/ الأخير بروايات هذه المرحلة، خاصة تلك التي ظهرت في ظل دخول العرب من جهة والغرب من جهة ثانية في علاقات ومواجهات قد يُختلف كثيراً في توصيفها، ليقود ذلك بالضرورة الروايات التي تتناول علاقة الشرق أو العرب بالغرب إلى أن تقدم صوراً مختلفة عن الغرب وتعامل العرب معه.

وابتداء، وقبل الانتقال إلى تناول موضوعة (نحن والآخر) أو (لقاء الشرق والغرب) في المبحث القادم، يجب أن نشير إلى ظاهرة فنية مهمة ومفيدة هنا، وهي

للرواية العربية وتطور هذه الرواية في جل الأقطار العربية من جهة، وانفتاح العرب أكثر- مجبرين ومختارين- على الغرب وإسهامهم الفاعل في زيادة العلاقة به وترسيخها وتفعيلها، خاصة في النصف الثاني من هذه المرحلة، نعني ما بعد الحرب العالمية الثانية. المهم أن روايات هذه المرحلة قد وصلت في ظل هذا التأسيس الفني والتطور إلى "ما يسمح للكاتب بتعديد وجهات النظر والخطابات حول إشكالية متعددة المستويات والأبعاد، وتتطلب من "الحوارية" في الأذهان والأساليب والنصوص أكثر مما تتحمله من الرؤى والمواقف الحدية والأحادية"(١٧) . ولم تكفّ، وهي تتناول موضوعة الشرق والغرب من خلال محاولة فهم واستيعاب عقلي ووجداني عميق له، وقد صار عالمه الذي صار قريباً عبر فهم ضمني للصراع الحضاري بين الشرق والغرب في مرحلة تشهد بلا أدنى شك تفوقاً حضارياً للأخير. ولعل هذا كان وراء تباين مواقف أبطال هذه الروايات، بل أحياناً تباين مواقف البطل الواحد من الغرب والإنسان الغربي. أهم أعمال هذه المرحلة رواية "بديعة وفؤاد"- ١٩١٤- لعفيفة كرم، و"عصفور من الشرق"- ١٩٣٨- لتوفيق الحكيم، و"أديب"- ١٩٣٢- لطه حسين، و"قنديل أم هشام"- ١٩٤٤- ليحيى حقي، و"الحي اللاتيني"- ١٩٥٣- لسهيل إدريس، إضافة إلى إمكانية ضم رواية "موسم الهجرة إلى الشمال"-١٩٧٠- للطيب صالح التي هي وفق تصنيفنا ضمن المرحلة التالية. ومن بين روايات هذه مرحلة يميّز جورج طرابيشي واحدة منها عن الأخريات، ويقول: "الضجة الأدبية التي رافقت (الحي اللاتيني) منذ ظهورها في مستهل عام ١٩٥٤ ترجع، في ما ترجع، إلى أنها استطاعت ما لم يستطع غيرها: أنْ تكون أنموذجاً للرواية التي تعالج العلاقة الحضارية بين الشرق والغرب من خلال العلاقة الجنسية بين المثقف الشرقي والمرأة الغربية"(١٨). ولعل ضمن أنجح ما تعبر عنه روايات هذه المرحلة عموماً أنها "تتخذ هذه القضية- قضية التلاقي- من (المرأة) إطاراً لصورة العلاقة التصادمية أو التصالحية بين الشرق والغرب، باستثناء (موسم الهجرة إلى الشمال) التي تكاد تختزل المواجهة- في هذه القضية- في إطار (الجنس)" (١٩).

المرحلة الثالثة، وهي المرحلة التي تمتد من نكسة حزيران إلى الوقت

للروايات التي تناولت موضوع (الشرق والغرب) بالرغم من محدودية هذه النماذج التي تدخل مختبرنا. أما هذه النماذج، والتي نجدها أبرز الروايات التي تعرضت للغرب والغربيين في هذه المرحلة، وعليه فقد كانت مركز اهتمام ورقتنا فهي:

سباق المسافات الطويلة : عبد الرحمن منيف ١٩٧٩

نورا : ناجي التكريتي ١٩٨١

الرحلة.. أيام طالبة مصرية في أمريكا: رضوى عاشور ١٩٨٣

وتشرق غرباً : ليلى الأطرش ١٩٨٧

الشاهدة والزنجي : مهدي عيسى الصقر ١٩٨٧

الثلج الأسود : محمد أزوقة ١٩٨٨

الميراث : سحر خليفة ١٩٩٠

كم بدت السماء قريبة : بتول الخضيري ١٩٩٩

رقص على الماء : محمود البياتي ٢٠٠٠

عابر سرير : أحلام مستغانمي ٢٠٠٢

الحدود البرية : ميسلون هادي ٢٠٠٤

أن غالبية الروايات التي تناولت موضوعة (الشرق والغرب) أو (نحن والآخر) هي روايات واقعية. وإذا لم يكن بعضها ليتفق مع هذا التوصيف كروايات الطيب صالح وعبد الرحمن منيف وأحلام مستغانمي مثلاً، فان هذا البعض لا ينأى عن الواقعية كثيراً. ولأننا نريد في هذه الورقة، أن نضع اليد، ولو بدرجة ما، على الرؤية العربية للغرب وعلى أشكال التعامل معه وعلى اختلاف المواقف من التلاقي معه، فإن هذه الروايات مع واقعيتها ستكون عوناً لنا في هذ ، "فمن الممكن للرواية الواقعية أن تبدو كشباك صاف يطل على العالم، وممكن لنا نحن القراء أن نرتبط كلياً بالشخصيات والأحداث"[٢١] فيها. وعليه فهذا النمط الذي تنتمي إليه غالبية نماذج ورقتنا الروائية، يتيح لنا أن نخرج ببعض الأحكام على المجتمع والأحداث والشخصيات على أرض الواقع الذي انطلقت منه متجاوزين هنا، وبمبرر واضح قول أدوين مور مثلاً: "الشيء الوحيد الذي يمكنه أن يفيدنا فيما يخص الرواية هو الرواية نفسها"[٢٢]. لكن هذا التوصيف يجب أن لا يجعلنا نذهب بعيداً إلى بناء مثل تلك الأحكام والانطباعات وافتراض رؤى قد لا تكون في الحقيقة هي تماماً في العمل الروائي. يقول بعض النقاد، "في الحديث عن الرواية الواقعية يجب أن نقاوم الإغراء لدراستها وكأنها حياة حقيقية، كما لسنا معنيين كثيراً بدراسة الشخصيات كما لو أنهم أناس"[٢٣]، وهو الخطأ الذي يرتكبه أحياناً الدارسون أو النقاد، خاصة حين لا يكون همهم الجوانب الفنية، أو حين يتناولون العمل الأدبي لا بوصفه عملاً فنياً خالصاً بقدر كونه وعاء أيضاً يهمهم معاينة ما يحويه، أو هو مرآة للمجتمع ، حسب التعبير النقدي الاجتماعي التقليدي. هذا يثير ملاحظة ثانية مهمة في هذا الصدد تلك هي أن الكثير من هذه الروايات إنما هي ثمرات لتجارب حقيقية للكتاب مع الغرب والغربيين. وتعلقاً بذلك وبكون هؤلاء الروائيين هم وراء الشخصيات التي تقدمها الروايات فقد كان أبطالهم غالباً مثقفين، وعليه فهي تصلح تماماً لتقديم مقولات ورؤى عما يتعلق بلقاء الشرق والغرب هي أصلاً للكتاب أنفسهم من جهة، كما أن تفرّد هؤلاء الروائيين بهذه التجارب الحقيقية تجعل من شخصياتهم التي هم وراءها ممثلة للناس بدرجات مختلف من جهة ثانية. وربما من هنا أيضاً تأتي القيمة لما نخرج به من التناول التطبيقي

المبحث الثالث

نحن والآخر

في الرواية العربية المعاصرة

(1)

في ظل ما رأيناه، وعبر مراحل تطور لقاء الشرق والغرب، من عدم فهم العرب للغرب مرة، ومحاولة فهمه مرة ثانية، وفهمه مرة ثالثة تنوعت وتباينت صور الغرب والغربي كما يراه العربي في الرواية العربية. ومع استمرار هذا في الرواية العربية المعاصرة، أي في أعمال المرحلة الأخيرة، هيمن بعض هذه الصور، الأمر الذي كان يعني أن يشمل هذا التنوع والتباين المواقف من اللقاء بين العرب أو الشرق والغرب. وكان ذلك بفعل ما طرأ على العلاقات العربية الغربية، وخاصة العربية الأمريكية من متغيرات وما شهدته المرحلة من أحداث جسام خاصة خلال العقدين الأخيرين لعل أهمها اتفاقيات السلام بين مصر وإسرائيل، وحربا الخليج، والاجتياح الأمريكي للعراق، والانتفاضتان الفلسطينيتان. إن المسح والتأمل والتحليل تكشفت لنا عن توزع رؤى العرب عن الغرب والغربيين وتبعاً لذلك المواقف منهما ومن لقاء الشرق والغرب في روايات هذه المرحلة، كما هي بزعمنا عند العرب في الواقع وخاصة خلال هذين العقدين، بين نوعين أو صورتين : صورة الغرب الإيجابية، وصورة الغرب السلبية.

أولاً. صورة الغرب الإيجابية- الغرب المشرق، والمتحضر. ومن الطبيعي أن تستتبع تحمس العرب للقاء الغرب إلى الحد الذي قد يصير به لبعض العرب حلماً أو على الأقل التجاوب معه. فعلى خلاف المتوقع غالباً تصوّر لنا بعض الروايات الغرب عالماً مشرقاً، فهو عالم تحضر، أو جمال، أو ثقافة، أو وعي سياسي وفكري.. إلخ. أما لماذا نقول إن هذه الصورة تأتي على خلاف المتوقع، فلأن صورته لدى العرب تكونت غالباً في ظل أجواء وظروف الاستعمار والهيمنة والمواقف غير المنصفة من قضايا العرب وخاصة القضية الفلسطينية والنزاع العربي

هاتي لنشوف إيش فيه بأميركا أحسن من هونه؟

" رمقته بغيظ... لكنها الآن لا تأبه، ولن تأبه ، ستبيع الدار والصالون وتهاجر إلى فلوريدا وتعيش مثل الملكة. تروح وتجيء وتسبح وترقص وتغني وتشترك بناد أو فرقة ثم تتزوج وتنجب طفلين أو ثلاثة ويكون لها بيت جميل بحديقة وكراج بريموت كنترول مثل جريس، وتعيش حياة مريحة من غير عقد، من غير صراع، من غير نكد.

" قال بتحد واستقرار:

" لو كانت أميركا حلوة كثير ما تركوها، صح يا زينة؟

" ووقف ودار حول نفسه ومدّ ذراعيه نحو الهضاب وامتداد الأفق حتى يافا:

" يعني أميركا أحلى من هون؟ أحلى من جبالنا وأراضينا؟

" بقيت صامتة إذ ماذا أقول؟ طبعاً أحلى؟ أميركا قارة. أميركا فيها كل الألوان. أيام الربيع تصيح جنة. زهر التفاح في واشنطن، زهر البنفسج في فرجينيا والكارولاينات، ثم الدافوديلز والأزاليا أصفر، ورق كالريش نشي فوقه كفراش طري ولا نشبع من ألوانه. أيام الشتاء ثلج أبيض، ندف وعواصف رعدية، والدور تشعّ بدفء حول المدفأة ونار الحطب. أين أميركا؟ وبدأت أحن!" (٢٦).

وكثيراً ما يبدو أن الروائيين ينطلقون في تقديم هذه الصورة، من نزعة أو نظرة إنسانية تتمثل في عدة جوانب، تعامل الروائي مع الموضوع ككل، ورسم صورة الغرب ذاتها، والشخصية العربية الحالمة. من أمثلة ذلك مثلاً الإشارة الصغيرة لكن الجميلة والمعبرة التي ترد في رواية أخرى لسحر خليفة، هي "مذكرات امرأة غير واقعية"، حين تلتقي بطلتها على طائرة بامرأة ايرلندية فتنقل لنا على لسان البطلة هذا اللقاء بنفس إنساني جميل:

" فقد اكتشفت أني أجلس إلى جانب فنانة آيرلندية تعزف البيانو في قصور الثقافة. ابتسمتُ لها فابتسمتْ لي، خاطبتها واستعنت بما تبقى في الذاكرة من اللغة

الإسرائيلي. مع هذا لم يتمثل الغرب في هذه الصورة أو وفق رؤية عرب عنه بشكل كبير وبارز في كل الروايات ناهيك عن قلة هذه الروايات. وفي الواقع أننا لا نجد رواية تتبنى هذه الرؤية، بل إن التعبير عن هذه الرؤية، أو بتعبير أدق الصورة تتسلل قليلة باهتة في بعض الأعمال ومن خلال بعض شخصياتها وهو ما قد لا يكون هدفاً بقدر ما أن الرواية تستهدف في النتيجة إظهار خطأ هذه الصورة وما تستتبعه من موقف من راسمها. ولعل هذا ما يبرر لماذا يكون الغرب بشكل حلم أو حلم يقظة أو ما يشبه الحلم، وبما يعني إمكانية انهياره في كل لحظة، كما يأمل مثلاً عم زينة لحلم ابنه مازن في أمريكا، في رواية سحر خليفة "الميراث"، وهي نموذجنا التطبيقي هنا بحثاً عن أمثلة هذا النوع من صور الغرب والمواقف منه.. "إحكيلك يا زينة معاه كلمة تفيده، يمكن يسمع، يمكن يقنع، يمكن يلاقي بأفكارك فكرة تهديه، يمكن إن حكيت عن أمريكا والعيشة هناك والتعب والشقا بأميركا وكيف الأميركان بيشتغلوا هناك زي الآلات يمكن يصحى، يمكن يفيق من أحلامه"(٢٤). لكن هذا لا يعني نجد صوراً تمتلك في إيجابيتها موضوعية مع قدرة على الإقناع، من دون التضحية بفكر الكاتب أو عقيدته أو رؤيته السياسية المرتبطة بالعروبة أو القضية الفلسطينية أو الدين مما يضعه عادة في موقف العداء أو الرفض، أو على الأقل عدم الرضا عن الغرب. ومن هنا فإننا غالباً ما نجد مثل هذه الصور عن دول غربية غير أمريكا وحتى هنا فإنهم لا يذهبون بعيداً في مدح الغرب، كما يعبر عن ذلك البيك في الرواية نفسها إذ يقول: "بس الألمان دمهم ثقيل، لكن للحق ناس شغيلين، عمروا بلادهم بعد الحرب خلال سنوات وصار اقتصادهم في العالم بعد اليابان. هيك الشعوب اللي بتفهم، مش زي حالنا"(٢٥). هنا يجب أن لا ننسى أن تلعب عوامل سلبية كثيرة، سياسية واجتماعية وثقافية واقتصادية، في الوطن ليتحول الغرب، وخاصة أمريكا، عند العربي إلى حلم. مثال ذلك الواضح في هذه الرواية هو فيوليت :

" انتهز مازن الفرصة ودخل على الخط :

" الست فيوليت نسيت حالها ونسيت حالها ونسيت الناس وما بتتذكر إلا أميركا.

أو تقديم الوجه السلبي لهما. ذلك ما يبدو أن محمد أزوقة فعله في روايته "الثلج الأسود"، كما قد يبدو شيء من ذلك في النص السابق. وهو في مثل آخر يبدو موضوعياً حين يتبنى في روايته بدرجة ما تميُز العربي وتفوقه على الغربي يقدم لنا الشخصية الغربية الرئيسة في الرواية المهندسة الأمريكية جانيت سومرز وهي تصل مطار عمّان بالشكل الآتي:

" توقفت المحركات وفُتحت الأبواب، بدأ الناس يخرجون من الطائرة، خليط عجيب من العرب والأجانب، الملابس مهرجان من الألوان الزاهية والأنماط المتضاربة... هذا رجل أعمال يرتدي بذلة صيفية فاتحة الألوان وربطة عنق حمراء يحمل حقيبة سامسونايت وكيساً مليئاً بالسيجار والويسكي، وتلك سيدة بدينة تلبس فستاناً أحمر فاقعاً وتحمل ثلاثة أكياس عليها أسماء المحلات الشهيرة في نيويورك، والأطفال كذلك يحملون نصيبهم من علب الكرتون والأكياس. بقيت جانيت جالسة حتى خف الزحام ثم قامت إلى الخزانة التي فوق رأسها وأخرجت لفائف الخرائط والرسومات الهندسية وحملت حقيبتها اليدوية الجلدية العتيدة التي ترافقها حيثما ذهبت...

" ... فتحت حقيبة ملابسها الوحيدة أمام الموظف، ابتسم لبساطة محتوياتها، وأشار إليها بإغلاقها والتقدم"(٢٩).

بقي أن صورة للغرب ترد في بعض الروايات تقترب كثيراً من الصورة الإيجابية، أو على الأقل تبتعد عن أن تكون سلبية، هي قد تميل إلى الحياد مع تمظهر لموضوعية يتبناها الروائي من خلال نظرة بطله. وهو في ذلك عادة ما يقدم للغرب صورة العالم القرين، إن جاز لنا القول. وما نقصده بصورة العالم القرين تحديداً هنا هو أن يُنظَر إلى الغرب على أنه عالم شبيه لعالمنا في الإنسانية وفي الوقت ذاته هو ليس كعالمنا من حيث امتلاك كل من العالمين لخصوصيته. وفي كل الأحوال يُستبعد أن تنطوي هذه الصورة على ما ينم عن تفوق على العرب إلا ما كان بشكل معقول وموضوعي كالتطور التكنولوجي والعلمي مثلاً، وهذا ينسحب بالفهم والرؤية على

الغربية. وبلهفة المحروم من دنيا الناس وارتداداً لعالم كنت ما زلت أحمل له كل أشواق التفاح أقبلت عليها. من أنت وماذا تفعلين وكيف تزوجت وكيف طُلّقت وكيف بدأت من جديد؟ عازفة بيانو؟ حرفة أم ولوج الجنة؟ والأجنحة؟ بلى بلى، هتفت باندفاع طفلة وأنا أستمع إليها. أعرف هذا الإحساس، جربته. وبلهاث حكيت وعبّرت وعبرت إليها. وكانت تكبرني بسنوات كثيرة وتجارب تمتد من محيط إلى محيط، وهتفت بشباب أصغر منها بعشرين سنة: بلى بلى . والتقينا.

" ورأتني ساهمة أفكر فربتت على كتفي وابتسمت:

" لشعبينا قصتان متشابهتان. وأنا وأنت متشابهتان.

" صدمتني المقارنة فتلعثمت. تمتمت ويدي على صدري:

" أنا... أنا.. لا أعرف.

" وعدت أحلم من جديد بالأجنحة والطيران وانفتاح الشرنقة"(٢٧).

وفي مشهد آخر من رواية أخرى، هي "الثلج الأسود" لمحمد أزوقة، نلمح هذه النزعة الإنسانية ولكن من خلال زاوية أخرى وفي مشهد مختلف يعبر عن الحب والإخلاص والإنسانية وهي تتمثل في الأمريكي روبرت تجاه خطيبته، بالرغم من أنها صارت مقعدة نتيجة حادث سير يقع لها وهي برفقة عشيقها العربي سعيد:

"استغرب أن يقرأ في وجه روبرت كمّاً من السعادة والرضى، يبدو أنّ هذا التعس قد حصل على فرصته في الاهتمام بجانيت أخيراً، وتمثيل دور المعين لها، لكنه عاد فعدل عن قسوته تجاه المسكين، فهو يحبها ولم يخطئ في تصرفه بل على العكس، أبدى خلقاً وترفعاً عمن الصغائر، وأهم من هذا كله تغلب على كل مشاعر الغيرة واستطاع أن يحضر إلى هنا ليقوم بخدمة جانيت ويقف إلى جانبها"(٢٨).

ومن طريف ما نلاحظه على تقديم بعض الروايات لهذه الصورة، وتعلقاً بكونها تأتي في إيجابيتها على خلاف المتوقع، فتأتي أحياناً متكلفة أو على الأقل مقصودة لغاية ما، كإضفاء الموضوعية على ما يأخذه على الغرب والغربيين من مآخذ

الصورة، أولاً، هيمنتها على ما قدمته الروايات التي تناولت اللقاء أو استوحته، وثانياً، لأن هذه الروايات هي ضمن أبرز روايات المرحلة التي تدرسها ورقتنا. وثالثاً، لأنها الأكثر إثارة لجدل علاقة الشرق والغرب وموضوعة (نحن والآخر).

لقد كان طبيعياً أن يستحضر وعي الروائي العربي أو لاوعيه وهو يتعامل مع موضوع (نحن والآخر الغربي) أو ما يستحضر الغرب كما عرفه العرب في الغالب معتدياً غازياً وسالباً واستعمارياً، فهذا ما سجله التاريخ، وحفظه الوعي واللاوعي الجمعيين ويراه العرب بشكل أو بآخر الآن. ولهذا فندر أن خلت رواية من الروايات التي تعاملت مع هذا الموضوع من صورة الغرب الاستعماري وما يلازم ذلك من صفات الغرور والهيمنة والسوبرمان، ولعل من أبرز هذه الروايات: "سباق المسافات الطويلة" لعبد الرحمن منيف، و"الرحلة" لرضوى عاشور، و"الشاهدة والزنجي" لمهدي عيسى الصقر. وفقاً لرؤية الروائي هذه ما كان للغربي أن ينظر إلى العرب أو الشرقيين إلا بوصفهم تابعين، أو على الأقل مؤهلين ليكونوا كذلك، إن لم يكونوا أمواتاً، فهذا الإنكليزي بيتر في رواية "سباق المسافات الطويلة" يقول: "هؤلاء الشرقيون ولدوا للموت... إنهم أموات بمعنى معين"(٣١). وفي المقابل ليس للغربيين إلا أن يفعلوا أي شيء في سبيل السيطرة على الشرق، يقول راندلي لبيتر: "يا صديقي العزيز... المهمة التي تذهب من أجل تنفيذها كبيرة وخطيرة ، وعليها يتوقف مستقبلنا في الشرق. أنت يا بيتر لا تعرف ماذا يعني الشرق، فالثروة ليست كل شيء. صحيح أنها مهمة جداً، لكنها ليست كل الشيء الوحيد. الشرق هو المستقبل، يجب أن نعترف بذلك، ومن يكسب هذا الشرق يكسب المستقبل"(٣٢).

وإذا ما تمثل الغرب لنا بنفسه بهذا الشكل عبر الشخصيات الغربية في رواية منيف ، فإن بطلة رضوى عاشور في "الرحلة" لا تخفي تبنيها لهذه الرؤية ، وتحديداً تجاه أمريكا ، مقدماً وهي تبدأ رحلتها إلى أمريكا .. "كرفاعة كنت في طريقي إلى بلاد بعيدة عنا غاية الابتعاد ، لتحصيل المعارف ، ولكني لم أكن مثله ذاهبة بحياد من لا يعرف شيئاً مما هو مقبل عليه ، ولا كنت مثل أجيال لحقته من مبعوثين راحو وعادوا مدلهين فيعشق الأنوار الامبريالية"(٣٣) . ومما يبدو لنا أنه موقف مسبق من الغرب

الناس نعني الغربيين. ويستتبع هذا النوع من التصوير أو الرؤى موقفاً إيجابياً من اللقاء بالغرب أو على الأقل مرناً أو موضوعياً أو متجرداً من الموقف مع أو ضد، مع تقبل العلاقة معه أو عدم رفضها. وإذا لم تتميز نظرة الشخصيات في الروايات التي تمثلت هذه الصورة أو الرؤية إلى الغرب والغربيين بقصدية كما هو الحال في ما رأيناه في المثال الأخير من رواية أزوقة، فإنها تتميز بحيادية وموضوعية، كما أشرنا، خاصة حين يكون وجودها ليس بوصفها غربية بل بوصفها شخصيات أخرى، أو أناساً آخرين بمعزل عن جنسها أو عنصرها. لهذا غالبية ما تمثلته الروايات من هذا كان ضمن تمثُّل للغرب متكاملاً، نعني بمختلف أوجهه ضمن صورة أو رؤية واحدة . وممن فعل ذلك، أحلام مستغانمي في "عابر سرير"، وسحر خليفة في "الميراث"، ومحمد أزوقة في "الثلج الحار". ففي واحد من مشاهد الرواية الأخيرة يصف لنا بطلها أمريكا بعين حرص الكاتب فيها أن تكون عين مشاهد حيادي:

" بعد دقائق من التجوال، وجد ينظر إلى الناس بدلاً ضمن البضاعة المعروضة، فالتركيبة في نيويورك خليط فريد من الأعراق والأجناس وحتى اللغات... يمر بك زنجي يجعلك ترتعد من طوله البالغ حوالي المترين، وفي نفس اللحظة يمر في الاتجاه المقابل فيتنامي لا يزيد طوله عن المتر والربع ولا يزن أكثر من ثلاثين كيلوغراماً. أما الملابس فهي أشدّ غرابة من الأشكال... فقد شاهد في هذه الزيارة أكثر من مرة الكثير من النساء والرجال يهرولون في الشوارع، كما أن بعضهم كان يتزلج على السكيت، هذه المرأة تمشي كمن ملكت الدنيا..." (٣٠).

(2)

ثانياً. صورة الغرب السلبية- الغرب القبيح أو الوحشي والمعتدي. وتستتبع هذه الصورة الموقف الرافض، وربما المقاوم، أو على الأقل غير المؤيد للقاء به. وتكتسب هذه الصورة أو الصور أهمية غير عادية لأنها أصلاً الإفراز الرئيس على أرض الواقع للقاء الشرق والغرب وما مثله مما سُمّي في أشد أشكاله صراعاً حضارياً وفي أقلها تعارضاً حواراً حضارياً. ويزيد من أهمية هذه

" فقدتُ صوتي فجأة أمام تلك اللوحة التي ما عادت مساحة لفظ نزاعات الألوان، بل مساحة لفظ نزاعات التاريخ"(٣٥).

ويصل استحضار الروائي للآخر الاستعماري إلى حد تخيُّل استعمار أو احتلال، كما فعل تحديداً مهدي عيسى الصقر في روايته "الشاهدة والزنجي"، حين تخيّل، في ما يشبه النبوءة كما نراها اليوم، احتلالاً لم يحدث في التاريخ للعراق من أمريكا. وعبْر تعامله مع مشاهد تحقيق البوليس العسكري الأمريكي مع فتاة عراقية- كانت قد أوقع بها مجرم عراقي لتكون غانية للمحتلين- شاهدت قتل عسكري أمريكي لزميل له، يقدّم لنا الروائي، خاصة من خلال عينيْ الفتاة ووعيها ، الأمريكي القبيح وفي صور جميلة فنياً بدءاً بالمظهر، "لمح أحد رجال البوليس العسكري الأمريكي، بقبعته البيضاء وحزامه العريض ومسدسه الكبير، واقفاً على الجرف... رجل ضخم طويل، بوجه أبيض مورد وشعر يظهر من تحت القبعة... ثم انتبه إلى رجل البوليس يتحرك من مكانه. تابع بنظراته الظهر العريض والأرداف الممتلئة تصعد وتهبط مثل أرداف امرأة سمينة، وعقب المسدس الأسود اللامع، يهتز مع حركة الفخذ"(٣٦). ويتلو ذلك ما يكمّل صورة الأمريكي القبيح وتحديداً من خلال الكولونيل الذي يحقق مع الفتاة وكما تراه به وتنقله لنا: "ولم تكن تدري ما الذي كان يريده منها، ولكنها أدركت على الفور أن الرجل يكرهها، وأن مصيرها كله معلق بكلمة منه"(٣٧). وتتوقف الفتاة ، كما نتوقف نحن معها، أمام هؤلاء العسكريين القساة، لتتساءل ماذا يمكن أن يحدث لها لو أن "عشرات من الجنود الأمريكيين، سوداً وبيضاً، كانوا سيزحفون عليها ، مثل أسراب النمل، من ثكناتهم في الصحراء"(٣٨). ومن الطريف أن الجواب على تساؤل الفتاة والروائي، ونحن معهما، يأتي اليوم حين يزحف الأمريكيون، ولكن من الصحراء ومن البحر ومن الجو، نحو العراق والعراقيين، ليفعلوا ما لم يعي العرب مثيلاً له غير ما فعله الصهاينة بالفلسطينيين.

لعل من الطبيعي أن تشتمل الصورة أو الصور التي قدمتها الرواية العربية للغرب وما استتبعته من مواقف، وهي تنطلق غالباً من وعي بما مثّله هذا الغرب في التاريخ القريب وربما لا يزال، من استعمار، على ملامح التعالي والرغبة في الهيمنة،

ممثلاً هنا في أمريكا تسير الكاتبة ببطلتها في طريق دعم رؤيتها هذه عبر التقاطها كل سلبيات الأمريكيين والمجتمع الأمريكي التي تصب في صورتها الامبريالية بشكل خاص ، بل هي بصراحة وبثبات رؤية ، حتى حين تستوقفها مظاهر العمران الهائل والتقدم تقول في نهاية الرواية : " أتساءل أحياناً إن كان بمقدوري أن أنظر إلى أمريكا بعين موضوعية . وكيف للملدوغ أن يتحدث بهدوء معملي عن خوص العقربة؟ وأين أذهب بذلك القهر الخاص بإنسان العالم الثالث الذي ازداد حدة باقترابي من تجربة العنف الاستعماري الآثم الذي تأسست فيه التجربة؟" (٣٤).

لقد جاء اعتراف الشخصية في رواية رضوى بتبني هذه الرؤية بشكل مسبق مقروناً بتوضيح مقنع موضوعياً، لكنه ليس كذلك فنياً لأنه جعلنا نحس بسهولة نلمح سوق الكاتب من خلال بطلتها لكل الأحداث والحوارات، وبقصدية واضحة، نحو ما يعزز هذه الرؤية. وليس هذا في الواقع هو السياق الفني في تعامل الروايات عموماً مع موضوعة (لقاء الشرق والغرب) حتى حين ينساق السرد نحو الصفة الاستعمارية للغرب. فذلك يأتي في رواية "عابر سرير" لأحلام مستغانمي ضمن السياق السردي لخط الأحداث وبما لا يكون معه مقصوداً لذاته إلا بحدود أنه يورد ما هي حقائق العالم المتخيَّل وعالم الواقع ، يفرضها خط الأحداث هذا خصوصاً وأن من الطبيعي أن لا ينسى العربي أو الشرقي حين يعيش في الغرب أن هذا الغرب قد استعمره، وربما لا يزال يستعمره، ودون أن يعني هذا انعكاسه هنا على تفكير الشخصية وسلوكها مع الآخر . فيستمع بطل الرواية لفرانسواز دليلة معرض فني وهي تشرح له إحدى اللوحات:

" هذه رسمها زيّان تخليداً لضحايا مظاهرات ١٧ أكتوبر ١٩٦١، خرجوا في باريس في مظاهرة مسالمة مع عائلاتهم للمطالبة برفع حظر التجول المفروض على الجزائريين، فألقى البوليس بالعشرات منهم مَوثوقي الأطراف في نهر السين. مات الكثيرون منهم غرقاً، وظلت جثثهم وأحذية بعضهم تطفو على السين لعدة أيام، لكون معظمهم لا يعرف السباحة...

(3)

إذا كان كل ما سبق تناوله من صور سلبية للغرب وما استتبعه من مواقف صريحة أو ضمنية للعرب منه قد انطلق من علاقة الشرق والغرب ذاتها ومن تماس عرب مع غربيين، فإن جل ما عُنيت به الروايات في حقيقة الأمر كان عن طبيعة الغرب ذاته، أي بمعزل عن الآخرين عرباً أو مسلمين أو شرقيين، كما تنعكس في الشخصية الغربية والمجتمع الغربي والحياة في الغرب بشكل عام. إن هذا ليحتاج إلى وقفة طويلة لا يمكن في الواقع إلا لورقة بحثية كاملة أن توفرها. ولكن لا بأس في أن ندرج في أدناه وبإيجاز أهم ما قدمته هذه الروايات عن هذه الجوانب:

أولاً. مادية الغرب وما تقود إليه من حياة فردية وغربة الناس، وضعف العلاقات وافتقادها العواطف والحرارة، بما في ذلك علاقات الأقرباء والأزواج والجيران(٤١).

ثانياً. فقدان الأمن وانتشار الجريمة(٤٢).

ثالثاً. انتشار الفساد، والمخدرات، والانحراف، والشذوذ، والتفسخ الأخلاقي(٤٣).

رابعاً. وضع المرأة الغربية، وتجردها غالباً من الالتزامات الأخلاقية في ضوء الحرية المنفلتة في خصوصيتها أحياناً التي لا تقنع القراء كما نتوقع أنها لم تقنع الروائيين من جهة وفي مقارنتها بالشرقية من جهة ثانية، وهو ما يتمثل في العلاقات بين الرجال والنساء والعلاقات الزوجية، ومحورية الجنس في أي علاقة. ولعل وضع المرأة هذا، وخاصة من خلال رؤية العربي الذي هو هنا البطل أو الشخصية الروائية ومن ورائها الروائي، كان وراء أن بدت الغربية للعربي عادة مشتهاة بمجرد رؤيتها وسهلة الوقوع في شباكه(٤٤).

كانت صورة الغرب والغربيين، كما بدت وفق القسم الأول، نعني الصورة الإيجابية، خاصة كما تبدو للعربي، تستتبع بالضرورة كما أشرنا رغبة العرب في العلاقة به أو على الأقل عدم رفضها. أما كل ما استعرضناه وأوجزناه هنا من صور سلبية لهذا الغرب، خاصة في علاقته بالشرق والإسلام والعرب، فإنه يستتبع عدم

بل على العنصرية أحياناً. ويبدو أن ما عزز هذا الملمح أو صورة الغرب العنصري هذه هو ما لاقاة ويلاقيه اليوم العرب والشرقيون المهاجرون إلى أمريكا والبلدان الأوربية. ومن أكثر الروايات التي بين أيدينا رسماً لصورة الغرب العنصري "الرحلة" لرضوى عاشور، و"رقص على الماء" لمحمود البياتي. فالمهاجرون الشرقيون عموماً في رواية البياتي يُوضعون ابتداءً في مجمعات سكنية معزولة عن مجمعات المواطنين وأحيائهم السكنية، ومع أن هذا يرسخ لدى المهاجر من البداية بالتمييز، فإن التعامل الذي لا بد منه مع مواطني البلد المضيف يرسخ لا هذا التمييز فحسب بل العنصرية التي يتبناها الكثير منهم ، وكما يلاقيها بطل الرواية في أكثر من مناسبة، وهي عنصرية نتجر على العرب والشرق والإسلام وكل ما يتعلق بنا وتُترجم أفعالاً معادية أحياناً ، وحوارات أحياناً أخرى:

" أنتم إرهابيون، أعنف أمة، تاريخكم ملطخ بالدماء منذ ظهر محمد هذا في الجزيرة العربية.

" ...

" أوشكت أن أسعل لكنني استطعت أن أضيف:

" نبينا قال : لئن تزول السماوات والأرض أهون على الله من قطرة دم تُسفك.

" ... سألني العبوس بصوت مرتفع:

" ألا تعتقد أن المهاجرين أمثالك يشكلون خطراً على ديمقراطيتنا ؟" (٣٩).

ومن الواضح أن هذا كله، استعمارية الغرب وعنصريته وكره العرب والانحياز إلى اليهود والصهاينة، قد قاد إلى الموقف الغربي، وخاصة الأمريكي، السلبي من القضية الفلسطينية والصراع العربي الإسرائيلي، وهو الموقف الذي قلما نجد رواية من الروايات التي تناولت موضوع الشرق والغرب لم يتجسد فيها. وكان غالبية ذلك عبر نقاشات وجدل بين أبطال الروايات أو شخصياتها العربية وغربيين(٤٠).

والغرب. ويبدو هذا الصراع صريحاً أحياناً، وقد يكون أحياناً أخرى ضمنياً أو مقنّعاً بأقنعة مختلفة- إن صح التعبير، كما قد يبدو صراعاً على وشك التفجر أحياناً ثالثة.

أما لماذا تلك الجوانب الإيجابية- على تواضعها- التي تظهر على الغرب والغربيين عموماً، في ظل ما طرحناه من افتراضات ورؤى فرضت الجوانب السلبية مع وجود الجانب الحضاري والإنساني في نظرات بعض الشخصيات العربية الروائية؟ فنعتقد أنه يعود إلى أسباب ثلاثة: فني، وواقعي، وذاتي. أما الفني فهو سعي الكتّاب إلى أن يكونوا موضوعيين في تعاملهم معم موضوع شائك إلى حد ما وفي رسمهم لشخصياتهم الروائية، ونحن نعرف أن الشخصية كما يُريدها الفن، وخاصة الفن الروائي، لا يمكن أن تكون ذات وجه واحد، فلا يمكن أن تكون مطلقة السلبية ولا مطلقة الإيجابية، ولا تكون شريرة، ولا خَيرة بشكل مطلق . أما السبب الواقعي فيتمثل في طبيعة الواقع من حولنا بشكل عام والواقع المتحقق والذي يعرفه جميعنا للعلاقة بالآخر بشكل خاص، وهي العلاقة التي قدمت لنا هذا الآخر بأشكال مختلفة. أما السبب أو العامل الذاتي فهو ما فرضته تجارب الكتّاب الحقيقية مع غربيين عرفوهم وعايشوهم أو ارتبطوا معهم بعلاقات مختلفة إذ وجدوهم أناساً عاديين. فقد عرفنا أن غالبية الكتابات قد جاءت ثمار مثل هذه التجارب، كما "يعلم كلٌّ منا أن الروائي يبن أشخاصه، شاء أم أبى، علم ذلك أم جهله، انطلاقاً من عناصر مأخوذة من حياته الخاصة، وأن أبطاله ما هم إلاّ أقنعة يروي من ورائها قصته، ويحلم من خلالها بنفسه"(٤٥). ذلك في الواقع وضع الروائي، كما وضع الكثير من المثقفين العرب في إشكالية معرفة الغربي، والأمريكي بشكل خاص عبر التماس الحقيقي معه إنساناً يرتبط به كما يرتبط بأي إنسان آخر في مجتمعه وبالتالي فهو يجده قريباً إليه بدرجة أو بأخرى ووفقاً لذلك فهو يتقبله بروح إنسانية ويتقبل الاندماج معه، وإلى جانب ذلك معرفة الفعل الغربي، وخاصة الأمريكي غير الودي، بل غالباً المعادي على المستوى السياسي مما يفرض عليه رفض هذا الغربي. ولعل ميسلون هادي تقدم حلاً حضارياً وإنسانياً يفك اشتباكات هذه الإشكالية حين لا تضع العلاقة بالآخر في سلة واحدة ، وذلك من خلال تعبيرها عن الموقف عبر خالد، بطل روايتها "الحدود البرية"، الذي

إمكانية إقامة علاقة مع الآخر الغربي، وهو ما تمثل في الروايات بشكل صريح أحياناً، وبشكل ضمني أو غير مباشر أو رمزي. أما أبرز ما عبر عن ذلك فقد كان من خلال إخفاق علاقات الرجل العربي والمرأة الغربية، وأحياناً محاولات زواج العربي أو زواجه فعلاً من غربية. جسدت ذلك مثلاً علاقة سعيد، بطل رواية "الثلج الأسود"، بالأمريكية جانيت سومرز التي انتهت بحادث مروري أقعد جانيت وعودتها إلى صديقها الأمريكي، ووضع الحياة العائلية غير السوية لأبي زينة، بطلة "الميراث". مع أمها الأمريكية، والوضع العائلي المضطرب وعدم الانسجام بين الأب العراقي والأم الإنكليزية لبطلة "كم بدت السماء قريبة" وانتهاء العائلة بالطلاق، وفشل البطلة نفسها في علاقتها بانكليزي. هنا يبرز السؤال الآتي المثار ضمنياً على امتداد الورقة: هل يمكن للقاء العرب بالغرب أن ينجح، في ضوء صور الغرب وما استتبعته من نظرة العرب إليه كما قدمتها الرواية العربية المعاصرة؟ نعتقد من المنطقي ابتداءً، وقد تعاملنا مع روايات، أن نبحث عن الجواب المعقول وفقاً لذلك في الأعمال الروائية نفسها . وهذا في والواقع ما نعتقد أن رواية بالتحديد قد قدمته وافياً ، وهي رواية ميسلون هادي "الحدود البرية" ، كما سنعرض ذلك في خاتمة ورقتنا.

الخاتمة

نرى مما سبق غلبةً واضحةً للجوانب السلبية على الصورة أو الصور المستنبطة من الروايات، الأمر الذي يستدعي السؤال البسيط: لماذا؟ نقول: إذا ما افترضنا خصوصاً أن هذه النظرة أو الرؤية تمثل نظرة العربي أو رؤيته للغربي على أرض الواقع، فإن الإجابة على هذا لربما تحتاج إلى دراسة أو دراسات أدبية وفكرية وسياسية واجتماعية. ولكن لا بأس في أن نطرح افتراضات يشكل بعضها وجهات نظر نتبناها، بينما تحتاج الأخرى إلى تأمل ضمن تلك الدراسات.أول هذه الافتراضات عبرَتْ عنه الروايات المدروسة نفسها، وهو أن هناك صراعاً، ربما كان حضارياً أو تنافسياً أو استعمارياً... الخ، لا يخبو أو على الأقل، لايختفي في كل لقاء بين الشرق أو العرب

والآن، وبعد أن تعرفنا على أشكال اللقاء بين الشرق والغرب وما طرحته من رؤى عن الغرب وعن اللقاء به في الروايات التي درسناها، هل يحق لنا أن نسقط ما رأيناه فيها على واقع لقاء العرب والغرب وما ينفرز عنه، لتكون رؤى الروايات هي بدرجة ما رؤى الواقع؟ .

إن هذا، في الواقع، يحيلنا إلى تساؤل أوسع أو أشمل وأسبق، وهو هل يحق لنا مقابلة عوالم الرواية بما تستمل عليه من شخصيات وأفكار ومواقف بعالم الواقع بأناسه وأفكارها ومواقفه؟ بل هل يحق لنا مقابلة المجتمع المتخيل للعمل الفني أو الأدبي بالمجتمع الحقيقي؟ نعتقد أننا إذا أردنا الموقف النقدي الخالص، وإذا أردنا جواباً نقدياً خالصاً على سؤالنا، فإن هذا الإسقاط لا يكون أمراً صائباً غالباً، مع أنه لا يخلو من المشروعية، خاصة إذا ما تخطينا- كما تخطى النقد فعلاً ذلك- القول بأن العمل الفني إنما هو انعكاس للواقع. ولكن في موقفنا هنا، حيث انطلاق الروائيين غالباً من الواقع بل أحياناً من تجاربهم الذاتية، يتسع هامش المشروعية الذي أشرنا إليه، بل يكون مبرراً تماماً فعل ذلك، خصوصاً ونحن نتعامل ضمن ما نتعامل معه في هذه الروايات مع شخصياتها بشكل خاص، وهي شخصيات نفترض أن تكون بدرجة أو بأخرى،ومهما ابتعد المتخيل عن المبدع في ظل تحييد حضور المؤلف أوتغييبه، والذي هو- نعني المؤلف- بدوره وبدرجة أو بأخرى من أناس المجتمع الذي ينتمي إليهم، وهم هنا العرب بالطبع. وهكذا وانطلاقاً من تبنينا لهذا الموقف، لا بد أن تعبر المواقف والرؤى التي تنطوي عليها الروايات عن مواقف العرب ورؤاهم، على الأقل جزئياً.

يبقى لنا بعد هذا كله أن نتساءل مرة أخرى، ولكن ربما بشكل آخر قد يكون أكثر صراحة: هل تقدم الروايات التي درسناها ومضامينها، واللقاءات بين الشرق أو العرب والغرب كما قدمتها لقاء الشرق والغرب والمواقف منه حقيقة؟ هنا نطرح هذا التساؤل، ولكننا لا نجيب عليه، بل نترك ذلك للقارئ وقد عرف الروايات وعرف طروحاتنا وافتراضاتنا، وخاصة أن كل ما نخرج به، لا من دراسة روايات تعاملت مع واقع ما فحسب بل من أي عمل أدبي، لا يعني بالضرورة صحيحاً أو متفقاً مع ما يخرج به الآخرون.

يتلخص في أوجه متعددة وذات أبعاد معبرة متعددة. وأهمية الرؤية التي عبرت عنها ميسلون هادي أنها قد جاءت في مستوياتها المختلفة في عمل واحد، ومن خلال تجربة شخصية روائية واحدة معبرة، وإذا مع جاء تعبير ميسلون عن هذه التجربة والموقف بأسلوب غلبت عليه السخرية السوداء فلأن نهاية سلبية، كما سنراها، كانت في الواقع قد خُطت أصلاً، وبطلها يستعيدها في وعيه لنا. فخالد، أولاً، يتقبل العلاقة بالآخر حين يهاجر إلى هذا الآخر بحثاً عن خلاص من أزمته في الوطن حتى وإن كان مضطراً شأنه شأن معظم المهاجرين العرب، "وبدلاً من أن يعود من مستشفى الرمادي إلى بغداد كم أوحى لـ(بيان) في مكالمته الخيرة لها من المستشفى، فإنه قرر، في لحظة قدرية أخرى، عبور الشارع إلى ضفته الأخرى لكي يتبع الأمر الذي عزم عليه من البداية ، ويواصل طريقه في الاتجاه الآخر"(٤٦). وهو، ثانياً، يقبل الاندماج بهذا الآخر حين يتزوج من أمريكية، "قالت له: دعك من البحث... دعك من هذا، وتعال معي إلى أمريكا... فطلب منها الزواج وذهب معها إلى هناك وتعهد بأن يصبح مواطناً صالحاً وأن ينظر، وهو ينتظر الكارت الأخضر، إلى الدنيا بعين واحدة... كان اسمه خالد أمين، فأصبح خالد أمين السعيد، أصبح السيد سعيد بعد أن نبشوا له جد العائلة من قبره"(٤٧)، ولكنه، ثالثاً، لا يتقبل هذا الاندماج حين يكون عبر مصادرة الأنا أو النحن حين صادرته زوجته بتلبسها لبوس الممتلك له "فأصبح خارجها [صحراء] عظاية تعرضها أنستازيا للرائح والغادي من أصدقائها حتى ملّت وكفّت عن الزهو بملكيتها لأثر من آثار الصحراء البعيدة"(٤٨). ولذا ما كان لهذا الزواج، رابعاً، أن يثمر مسخاً أو موتاً "ووضعوا له في سيارة نقل الموتى تابوتاً آخر يحمل اسم العائلة هو تابوت ابنته التي ولدت بلا أرجل ولا أيد"(٤٩). وهكذا يرفض كل هذا الدمج غير الطبيعي، فيطلق زوجته ويعود إلى الوطن، ومقابل قبول لأشكال أخرى من اللقاء بالآخر، يتعزز رفضه هذا برفض ضمني للآخر حين يكون بصورة الأمريكي المحتل الذي يجده في العراق، خاصة حين يجد الوطن ممثلاً في بغداد في ظل المحتل غير الوطن الذي يعرفه: " يا إلهي!.. ما هذه الفوضى! .. ما هذا الدخان!؟.. إنها [بغداد] أكثر خراباً من أي وقت مضى".

بدون وعي، على محو الاختلافات والخصوصيات لصالح التشابهات والعموميات". مجموعة: أفق التحولات في الرواية العربية.. دراسات وشهادات ، دار الفنون / مؤسسة عبد الحميد شومان، والمؤسسة العربية للدراسات والنشر، عمّان، ١٩٩٩، ص ٥٨ – ٥٩.

(١١)نزيه أبو نضال: المثقفون العرب والغرب، ١- صدمة (العصفور الشرقي) توفيق الحكيم، جريدة الدستور، عمان، ١٩٩٩/١٠/١؛ وانظر: رجاء عيد، مصدر سابق، ص٥٧-٧٦.

(١٢)عيسى العبادي: الرواية الأردنية ١٩٦٧- ١٩٩٠، رسالة دكتوراه مقدمة إلى كلية الآداب بالجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩٤، ص ٣٤.

(١٣)انظر للباحث: "صورة الأمريكي في الرواية العربية"، مصدر سابق ، ص٥٤.

(١٤)عيسى العبادي: مصدر سابق.

(١٥)رجاء عيد: لقاء الحضارات في الرواية العربية، مجلة (فصول)، القاهرة، م١٦، ع٤، ربيع ١٩٩٨، عدد خاص عن "خصوصية الرواية العربية"، ج٢، ص ٥٧.

(١٦)المصدر السابق.

(١٧)مجموعة، مصدر سابق، ص١١.

(١٨)جورج طرابيشي: شرق وغر .. دراسة في أزمة الجنس والحضارة في الرواية العربية، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٩، ص ٧١.

(١٩)رجاء عيد، مصدر سابق، ص ٣٠.

(٢٠)جورج طرابيشي، مصدر سابق ٣١.

(٢١)رجاء عيد: مصدر سابق، ص ٥٧.

(22)Muir: The Structure of the Novel, London, 1979, P17.

(23)John Peck and Martin Coyle: Literary Terms and Criticism, Macmillan Education LTD. London, 1991, P116.

(٢٤)سحر خليفة: الميراث، دار الآداب، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٧، ص ٩٣.

الهوامش :

(١) هوراس أينغدال، جريدة الشرق الأوسط، ٩/ ١٢/ ٢٠٠٢.

(٢) المصدر السابق .

(٣) حسن عبد الموجود (إعداد): مبدعون فلسطينيون في ندوة "المقاومة أحياناً لا تحتاج إلى حجر أو بندقية"، أخبار الأدب، ع ١٦٥٩٩، ٣٠/ ١١/ ٢٠٠٣.

(٤) الكاتب العربي في ظل السلطة.. فاضل السباعي نموذجاً، حوار: فيليب سايار، رابطة أدباء الشام، مجلة تصدر في الإنترنيت، لندن، تحديث ٢٠٠٣/١٠/١١.

(٥) صاحب الربيعي : الأدب الإنساني وموقف الأديب، ع٦٤٠، ٢/ ١١/ ٢٠٠٣.

(٦) جان بول سارتر: ما الأدب؟، ترجمة جورج طرابيشي، منشورات المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، ص ٥.

(٧) قبل نصف قرن طرحت مجلة (الآداب) البيروتية سؤالاً وجهته إلى عدد من الأدباء عما تراه من ضعف النزعة الإنسانية في الأدب العربي، وعن سبب أو أسباب ذلك إن كان هو كذلك فعلاً. وقد جاءت الردود مختلفة. فمن الأدباء من قال يوم ذاك إنه بسبب "أن الأدباء العرب ما زالوا يتعالون على الشعوب التي يعيشون بينها ويأكلون لقمتهم من كد أبنائها ، بل أن منهم من يكرهون الفقراء"، ومنهم من علل ذلك في ما سماه كسل الأدباء في معالجة الفنون الأدبية التي تتجلى فيها النزعة الإنسانية، ومنهم من علله بغير ذلك مجلة الآداب ، بيروت، ع ، أيلول/ سبتمبر ١٩٥٣.

(٨) انظر للباحث: النزعة الإنسانية في الأدب، جريدة (الزمان)، لندن، ٢٠٠٤/١١/٢٨.

(٩) انظر تفصيل هذه العوامل في دراستنا "صورة الأمريكي في الرواية العربية في العراق وبلاد الشام"، في: العلاقات العربية– الأمريكية نحو مستقبل مشرق، تحرير د. سامي عبدالله خصاونة، الجامعة الأمريكية، عمّان، ٢٠٠١، ص ٥٢– ٥٣.

(١٠)هنا نستغرب إشارة أحد الباحثين، هو الدكتور معجب الزهراني حين يقول وهو يقدم لتناوله صورة الغرب في الرواية العربية: "رأيت التركيز في هذه المقاربة على صورة الآخر الغربي من منظور جديد ومختلف عما تعودنا عليه ونحن نقرأ ونعمل، بوعي أو

(٤٠)انظر: الرحلة، مصدر سابق، ص٣١؛ و وتشرق غرباً، مصدر سابق، ص٧٧؛ والثلج الأسود، مصدر سابق، ص١٣٧، ٢٣٥، ٢٦٥.

(٤١)انظر، أمثلة على ذلك: الميراث، مصدر سابق، ص١٦، ٢٢٢؛ والثلج الأسود، مصدر سابق، ص٩٩؛ الرحلة، مصدر سابق، ص٢٢٤؛ وميسلون هادي: الحدود البرية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ص١٢٤.

(٤٢)انظر، أمثلةً على ذلك: الرحلة، مصدر سابق، ص٢٢٧، ١٤١؛ وعابر سبيل، مصدر سابق، ص٢٠٥؛ والثلج الأسود، مصدر سابق ، ص٢٠١.

(٤٣)انظر، أمثلةً على ذلك: الثلج الأسود، مصدر سابق، ص١٢١؛ والرحلة، مصدر سابق، ص٨٠.

(٤٤)انظر، أمثلةً على ذلك: رقص على الماء، مصدر سابق، ص٢٧، ٢٨، ٦٠؛ والثلج الأسود، مصدر سابق، ص٤١، ٤٥، ٩٧، ١٠٣، ١٢٥، ٢٥٨؛ وأحلام مستغانمي: ذاكرة الجسد، دار الآداب، بيروت، ط١٧، ٢٠٠١، ٢٣٥؛ وبتول الخضيري: كم بدت السماء قريبة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٣، ٢٠٠٣، ص ٧٧.

(٤٥)ميشال بوتور: بحوث في الرواية الجديدة، ترجمة فريد أنطونيوس، منشورات عويدات، بيروت، ١٩٧٨، ص٦٤.

(٤٦)ميسلون هادي، الحدود البرية، مصدر سابق، ص١٣١.

(٤٧)الرواية.

(٤٨)الرواية، ص ٢٥.

(٤٩)الرواية، ص ١٢٤- ١٢٥.

(٥٠)الرواية، ص١٤١.

(٢٥)الرواية، ص ١٤٣.

(٢٦)الرواية، ص٢٤١.

(٢٧)سحر خليفة: مذكرات امرأة غير واقعية، دار الآداب، بيروت، ط٢، ١٩٩٢، ص٨٢- ٨٣.

(٢٨)محمد أزوقة: الثلج الأسود، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٢، ص٢٩٦.

(٢٩)الرواية، ص ٥- ٦ .

(٣٠)الرواية، ص١٢٠- ١٢١.

(٣١)عبد الرحمن منيف: سباق المسافات الطويلة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت والمركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع- عمان، ط ٨، ٢٠٠٠، ص ٩٥.

(٣٢)الرواية ، ص٢٢٠.

(٣٣)رضوى عاشور: الرحلة.. أيام طالبة مصرية في أميركا، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط ٣، ١٩٨٧، ص٦.

(٣٤)الرواية، ص ١٦٨.

(٣٥)أحلام مستغانمي: عابر سبيل، منشورات أحلام مستغانمي، بيروت، ط ٨، ٢٠٠٣، ص٥٨- ٥٩.

(٣٦)مهدي عيسى الصقر: الشاهدة والزنجي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٨، ص٧- ٨.

(٣٧)الرواية، ص٢٦.

(٣٨)الرواية، ص٩٤.

(٣٩)محمود البياتي: رقص على الماء.. أحلام وعرة، الوكالة الدولية للإعلام ، ٢٠٠٢، ص٨٥؛ وانظر ص٤٩- ٥١، ٨١- ٨٩؛ وانظر أيضاً: الثلج الأسود، مصدر سابق، ص١٠٥، و سباق المسافات الطويلة، مصدر سابق، ص ١٣٤.

- عابر سرير، منشورات أحلام مستغانمي. ط ٢، بيروت، ٢٠٠٣.
- منيف، عبد الرحمن: سباق المسافات الطويلة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت والمركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع- عمان، ط ٨، ٢٠٠٠.
- هادي، ميسلون: الحدود البرية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٤.

(ب) المراجع العربية:

- أبو نضال، نزيه: المثقفون العرب والغرب، ١- صدمة (العصفور الشرقي) توفيق الحكيم، جريدة الدستور، عمان، ١٩٩٩/١٠/١.
- أينغدال، هوراس: حوار، جريدة (الشرق الأوسط)، لندن، ٢٠٠٢/١٢/٩.
- بوتور، ميشال: بحوث في الرواية الجديدة، ترجمة فريد أنطونيوس، منشورات عويدات، بيروت، ١٩٧٨.
- خصاونة، د. سامي عبدالله (تحرير): العلاقات العربية- الأمريكية.. نحو مستقبل مشرق، الجامعة الأمريكية، عمّان، ٢٠٠١.
- الربيعي، صاحب: الأدب الإنساني وموقف الأديب، ع٦٤٠، ٢/ ١١/ ٢٠٠٣.
- سارتر، جان بول: ما الأدب؟، ترجمة جورج طرابيشي، منشورات المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، ص٥.
- السباعي، فاضل: الكاتب العربي في ظل السلطة.. فاضل السباعي نموذجاً، حوار: فيليب سايار، رابطة أدباء الشام، مجلة تصدر في الإنترنيت، لندن، ٢٠٠٣/١٠/١١.
- طرابيشي، جورج: شرق وغرب.. رجولة وأنوثة، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٩.
- العبادي، عيسى: الرواية الأردنية ١٩٦٧- ١٩٩٠، رسالة دكتوراه مقدمة إلى كلية الآداب بالجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩٤.

المصادر والمراجع :

(أ) الروايات :

- إدريس، سهيل: الحي اللاتيني، بيروت، ١٩٦٢.
- أزوقة، محمد: الثلج الأسود، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٨.
- الأطرش، ليلى: وتشرق غرباً، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٧.
- البياتي، محمود: الرقص على الماء.. أحلام وعرة، الوكالة الدولية للإعلام، ٢٠٠٢.
- التكريتي، ناجي: نورا، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨١.
- الخضيري، بتو : كم بدت السماء قريبة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٣، ١٩٩٩.
- خليفة، سحر: مذكرات امرأة غير واقعية، بيروت، دار الآداب، ط٢، ١٩٩٢.
- أيضاً: الميراث، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٧.
- رؤوف، عدنان: يوميات علي سعيد، وزارة الثقافة والفنون، بغداد، ١٩٧٩.
- صالح، الطيب: موسم الهجرة إلى الشمال، دار العودة، بيروت، ١٩٧٠.
- الصقر، مهدي عيسى: الشاهدة والزنجي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٨.
- عاشور، رضوى: الرحلة.. أيام طالبة مصرية في أمريكا، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط ٣، ١٩٨٣.
- مستغانمي، أحلام: ذاكرة الجسد، دار الآداب، بيروت، ط ١٧، ٢٠٠١.

- عبد الموجود ، حسن (إعداد) : مبدعون فلسطينيون في ندوة "المقاومة أحياناً لا تحتاج إلى حجر أو بندقية"، أخبار الأدب، ع١٦٥٩، ٢٠٠٣/١١/٣٠.

- عيد ، رجاء : لقاء الحضارات في الرواية العربية، مجلة (فصول)، القاهرة، م١٦، ع٤، ربيع ١٩٩٨، عدد خاص عن "خصوصية الرواية العربية"، ج٢، ص٥٦- ٧٧.

- كاظم، د. نجم عبدالله: النزعة الإنسانية في الأدب، جريدة (الزمان)، لندن، ٢٠٠٤/١١/٢٨.

- مجموعة: أفق التحولات في الرواية العربية.. دراسات وشهادات، دار الفنون/ مؤسسة عبد الحميد شومان، والمؤسسة العربية للدراسات والنشر، عمّان، ١٩٩٩.

(ج) المراجع الأجنبية :

- Muir, Edwin: The Structure of the Novel, London, 1979.

- Peck, John and Martin Coyle: Literary Terms and Criticism, Macmillan Education LTD. London, 1991.

العسكري انذاك المتمثل بالامبراطورية الفرثية (٢٥٠ق.م -٢٢٦ م) والامبراطورية الرومانية ،لذا اصبحت الحضر مدينة كبيرة تدافع عن استقلالها بوجه الحروب الطاحنة في اسيا الصغرى، ولاسيما في عهد الملك الفرثي الثالث افراط (فراهاطيس) (٦٩-٥٧ ق.م) وابنه اورود الثاني (٥٧-٣٦ ق.م) وقد ازدادت خبرة واحتكاكا ، وكانت مركزا عسكريا للقبائل العربية يحسب لها حساب في الدفاع والهجوم[٥] ، وبذلك يعد هذا الموقع عاملا مهما في بروز الروح العسكرية عندهم وتطورها نتيجة الدور العسكري المتميز لاهلها في الصراع الدائر انذاك ودفاعهم عن مدينتهم ،فاخذت الحضر بصفتها مدينة تظهر على مسرح الاحداث وتسجل حضورا في المكان والزمان منذ منتصف القرن الاول الميلادي ، بزعامة ابناء القبائل العربية الموجودين يتولى قيادتها زعيم يطلق عليه (ربا) يشاركه قادة الجيش اولا ثم التجار من اصحاب القوافل ثانيا ، ويذكر ان المناصب الادارية يصل لها الاشخاص في العادة عن طريق الانتخاب في مجلس للتشاور يعقد في مدرج المعبد الكبير مثال ذلك انتخاب (شمشبرك) لسدانة المعبد ، إذ اشترك في ذلك سكان المدينة كافة شيبا وشبابا سواء المقيمين فيها او المارين بها وكذلك الاعراب المتجولين حولها[٦] ، وهذا يعني عدم طغيان الروح العسكرية على الادارة على الرغم من اشتراك قادة الجيش في الحكم .

وعن مدى تطور الحياة العسكرية وارتكاز مدينة الحضر عليها ، يشار الى استبسال اهلها بوجه الاعتداءات الخارجية للمحافظة على الاستقلال ،بل كانت ترد على هذه الاعتداءات بقوة وتهاجم الخصوم، وخير مثال : ردها على تحرشات مملكة (حدياب) التي كانت تحكم منطقة اربيل والموصل وسنجار ونصيبين ، فقد نقل عن المؤرخ (يوسفوس فلافيوس) الى ان ابيا (ابياس) ملك العرب (يقصد ملك الحضر) الذي تسانده القبائل العربية في جزيرة ما بين نهري دجلة والفرات نازع ملك حدياب ازاط (٣٦-٦٠م) لكنه حوصر في مدينة (اراسميس) التي يعتقد انها تقع ضمن اراضي الحضر شمالا، وحتى لا يقع ملك العرب في الاسر القى بنفسه من على الحصن فمات دفاعا عن اراضيه[٧]. وهذا يدل على وجود حكام للحضر لهم شان في